

التوجه المقاصدي للنهضة المجتمعية في مخاطبات الإمام علي (عليه السلام)

أ.م.د. آلاء علي عبد الله العنبي

كلية الإمام الكاظم (ع) / العراق
البريد الإلكتروني: allaali@alkadhumi-col.edu.iq

استلام البحث: 21-06-2024 مراجعة البحث: 20-08-2024 قبول البحث: 24-08-2024

ملخص

يعدّ (نهج البلاغة) دستوراً للحياة السياسية والاجتماعية والإدارية، وقد جاء عهد الإمام (ع) لملك الأشتر أنموذجاً لذلك الدستور. إن هذا العهد المبارك جاء وثيقة شاملة لحياة الأمة في شتى القطاعات؛ إذ يتضمن مقاصد تكمن وراءها معاني ببناء الفرد والمجتمع، إذ اشتمل هذا الخطاب على تفاصيل الفرد داخل الدولة من أدقّ تفصيلة إلى أكبرها، فكان بمنزلة الدستور القانوني السياسي والمرجع التشريعي لمن أراد بناء فرد ومجتمع ودولة على وجه الحقيقة لا المظهر، "إن عهد الإمام (ع) لملك الأشتر (رض) يعدّ "أول وثيقة قانونية مفصلة تعالج واجبات الحاكم ووظائفه والعلاقات بين الشعب وبين الحاكم، كما يفصل الحديث عن السلطات الثلاث (التشريعية- القضائية - التنفيذية) ويضع الضوابط لأشخاصها". ومن هذا المنطلق صار أنموذجاً لدراساتنا التي جاءت بمقدمة ومهاد، ثم توضيح لأبرز تمثلاً النهضة المجتمعية في عهد الإمام (ع)، وجاءت النهاية بختام العهد ومصادر الدراسة.

الكلمات المفتاحية: القصد - الخطاب - المجتمع - العهد - نهج البلاغة .

Abstract:

(Nahj al-Balagha) is considered a constitution for political, social and administrative life, and the era of Imam Malik al-Ashtar came as a model for that constitution. This blessed era came as a comprehensive document for the life of the nation in various sectors. It includes objectives behind which constructive meanings lie for the individual and society, as this discourse worked on the details of the individual within the state from the finest detail to the largest of them. It was the legal, political and legislative reference for those who wanted to build an individual, society and state in the face of truth and not appearance. It is "the first detailed legal document that deals with the duties and functions of the ruler and the relations between the people and the ruler". It also details the discussion of the three powers (legislative - judicial - executive) and sets controls for their people. "From this point of view, it became a model for our study, which came with an introduction and a foundation, then an explanation of the most prominent representations of societal revival in the era of the Imam, and the end came with the conclusion of the covenant and the sources of the study.

Keywords: Intention - Discourse - Society - Covenant - Nahj Al-Balagha.

مقدمة:

من بدهيات الأمور ومسلّماتها لدى الشعوب كلها، أنّ أية نهضة تحدث في مجتمع ما لا بدّ أن تنطلق من الفرد، وعملية اصلاح الفرد ونهضته على نمطين: الأول أن يصلح نفسه بشكل ذاتي ويتحقّق ذلك عندما يراقب نفسه ويشغل عليها (بناء النفس تجاه النفس)، والثاني: أن يهتمّ المجتمع أو المعنيون بأمره باستحضار ما يضمن ببناءه النفسي تجاه مجتمعه (بناء النفس تجاه المجتمع). والنمط الأول هو وظيفة الفرد نفسه كأن يعوّد نفسه على الالتزام بمواعيد الصلاة مثلاً، وأما النمط الثاني فهو مسؤولية الدولة والمجتمع (كأن تسعى الدولة إلى تعليم أفرادها).

والإمام علي (ع) في نهج البلاغة -عموماً- وفي عهده المبارك إلى واليه على مصر مالك الأستر (رض) - خصوصاً- يصوّر لنا طريقة بناء الفرد ويضع قواعد وأسساً ومعايير مثالية لآلية التعامل مع الرعية من قبل الولي، فإن نجاح الولي في تجاوز هذه المرحلة، نجاح في بناء مجتمع سليم صالح لأن يمثل دولة لها كيانه واستقلاليتها وأبعادها ووجودها بين مجاوراتها.

إن هذا العهد الشريف من أطول عهود الإمام ومن أهمها؛ لأنه يعكس تلك الإمكانة الفذة التي يمتلكها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في إدارة الدولة قانوناً وسياسة واجتماعاً⁽ⁱ⁾، وهو خطاب يتضمن مقاصد تكمن وراءها معانٍ ببناء الفرد والمجتمع، إذ اشتغل هذا الخطاب على تفاصيل الفرد داخل الدولة من أدقّ تفصيلة إلى أكبرها، فكان بمنزلة الدستور القانوني السياسي والمرجع التشريعي لمن أراد بناء فرد ومجتمع ودولة على وجه الحقيقة لا المظهر، " إن عهد الإمام (ع) لمالك الأستر (رض) يعدّ " أول وثيقة قانونية مفصلة تعالج واجبات الحاكم ووظائفه والعلاقات بين الشعب وبين الحاكم، كما يفصل الحديث عن السلطات الثلاث (التشريعية- القضائية - التنفيذية) ويضع الضوابط لأشخاصها"⁽ⁱⁱ⁾. ومن هذا المنطلق صار أنموذجاً لدراستنا التي حاولنا فيها هذه الكشف عن وجوه التربية السياسية والاجتماعية في نهج البلاغة وفي عهد الإمام (ع) لمالك الأستر (رض) واليه على مصر، وإثبات القصدية وراء خطاب الإمام (ع) وهي قصدية لا تخلو من استهداف الفرد والمجتمع. وقد جاءت دراستنا بمقدمة ومهاد، ثم توضيح لأبرز تمثلاً النهضة المجتمعية في عهد الأمام (ع)، وجاءت النهاية بختام العهد ومصادر الدراسة. والحمد لله رب العالمين.

مهاده الدراسة:

لا يختلف اثنان على أن عملية بناء دولة قوية ذات هيكلية متينة تتوقّف على اثنين، الحاكم، والمحكوم؛ فإن صلح الاثنان قامت بهما دولة، وإن اختلف نظام أحدهما أو كلاهما، ضعفت تلك الدولة، ولذلك نجد أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من بعده (عليهم السلام) قد ركزوا تمام التركيز على بناء أساس سليم لعملية بناء الدولة من خلال الاهتمام بالمحور الجوهري فيها وهو (الفرد)؛ لأن بالفرد تقوم المجتمعات فإن صلح، صلحت هي، وإن فسد فسدت وضُعت. ولذلك كان من الضرورة العناية بهذا العنصر الجوهري (الفرد) والعمل على بنائه بناءً سليماً يؤهله لأن يكون عضواً فعالاً ومنتجاً ليتأسس تبعاً لذلك المجتمع الصحيح الذي يخلو من المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية؛ لأنه إن عانى من تلك المشكلات أو بعضها أمسى معلولاً، وعندما يكون المجتمع معتلاً شُلت إرادة الدولة وتقيدت مسيرتها. وحتى يتم تجنّب تلك النتيجة المأساوية، وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) لمن يتولى أمر الدولة علاجاً جذرياً يبدأ بخطوات أولها: الفرد؛ بوصفه النواة الأولى في المجتمع، وتبعاً لصحته يصحّ المجتمع، فالإمام علي (ع) يكون بذلك قد رسم خارطة لا تتأفّس لبناء دولة ينعم أهلها بالسعادة والرضا من خلال وضع استراتيجية تبدأ بالفرد وتنتهي بالمجتمع والدولة.

وتتجلى تلك الاستراتيجية المتميزة والفريدة، في مفاصل عديدة من حياته العملية الكريمة، ونأخذ منها على وجه العجالة والتحديد رسائله إلى ولاته في الأمصار وبالتحديد عهده إلى مالك بن الأستر النخعي (رض) ذلك الأنموذج السامق والحاكم المثال الذي قال فيه علي (ع) واصفاً للرعية بعد توليه مصر بقوله (ع) : " أما بعدُ فقد بعثتُ إليكم عبداً من عبَادِ اللَّهِ لا ينامُ أيامَ الخوفِ، ولا يَنكُلُ عن الأعداءِ ساعاتِ الرُوعِ. أشدُّ على الفجارِ من حريقِ النارِ، وهو مالكُ بنُ الحارثِ أخو مَدحِجٍ، فاسمَعُوا له وأطيعُوا أمره فيما طابَقَ الحقُّ فإنّه سيفٌ من سيوفِ اللَّهِ لا كليلُ الظبّةِ، ولا نأبي الضريبةِ، فإن أمركم أن تُنفروا فأنفروا، وإن أمركم أن تُقيموا فأقيموا، فإنه لا يُقدّم ولا يُحجّم ولا يُؤخّر ولا يُقدّم إلا عن أمرِي، وقد أثرتكم به على أنفسِي لنصيحتِهِ لكم وشدةِ شكيمتِهِ على عدوكم "⁽ⁱⁱⁱ⁾.

فكان خطابه (ع) لمالك (رض) بمنزلة القواعد التنظيمية لبناء دولة مزدهرة يتمتع الجميع فيها بالرضا والعدالة، إذ رسم فيها الخطوط العريضة للسياسة العامة التي يجب على الساسة انتهاجها والعمل وفقها، وهي خطوط مبنية على المنطلقات الإنسانية بالدرجة الأولى بما ينظم الحياة سياسةً واقتصاداً واجتماعاً وإنسانيةً، من خلال تنظيم العلاقات الداخلية بوصفها تتمحور حول نواة المجتمع (الفرد)، ومن ثم تنظيم العلاقات الخارجية بما يضمن للدولة قوتها وهيبتها. ونحن في هذا المقام نحاول الوقوف على أهم الأسس والمنطلقات التي انبثقت من عهده (ع) لمالك الأستر (رض) التي أراد بها التركيز على علاقة الحاكم بالمحكوم، وآلية التعامل بين هذين العنصرين المركزيين بما يضمن القبول لدى الرعية مما يساهم في تحقيق النهضة المجتمعية .

- تمثّلات النهضة المجتمعية في عهد الإمام علي (عليه السلام) لمالك الأشر (رض).

إنّ خطابات الإمام علي (ع) لولائه هي بمجملها دعوة تتضوي تحتها مقاصد بيّنة للحفاظ على المجتمع وتأدية حقوقه إليه، ورسم حدود واضحة لسلطة الحاكم تجاه المحكوم بما يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل واقعي لا شعاري. وخطابه لمالك الأشر (رض) من أعظم تمثّلات تلك الدعوة؛ إذ رسم الإمام (ع) فيها لوحة متكاملة للدولة الأنموذجية بكل تفاصيلها فرداً ومجتمعاً وحكاماً، وفي جميع الاتجاهات سياسية كانت، أو اقتصادية، أو اجتماعية، ومن أبرز مسوغات النهضة المجتمعية ومعاييرها في عهده (ع) لمالك الأشر (رض) ما يأتي:

- الإقرار بالعبودية:

إذ افتتح (ع) رسالته بقوله: " هذا ما أمر به عبدُ الله عليّ أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشر في عهده إني، حين ولّاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها " (iv) وهي إشعار إلى الحاكم ليعتقد بحقيقة وجوده، وأنه مسخر في مقامه هذا لخدمة من هم تحت ولايته، لئلا تسوّل له سلطته بتناسي تلك الحقيقة، واستغلال تلك السلطة بما يضيق على العباد ويتفق مع المصالح الذاتية الضيقة على حساب المصلحة العامة. وهذا المعنى تقبع وراءه مقاصد تتعلّق بضرورة الاهتمام بالجانب السلوكي، وأن لا يخالف فعل الإنسان قوله، من خلال الادعاء أو التظاهر بخلاف ما هو ظاهر، وقد وصف الإمام علي (ع) وصفة لتلك العلة مفادها استحضار العلاقة بين الإنسان وربّه من خلال الإقرار بمبدأ العبودية لله تعالى والعود إليه (v).

- الحاكم أولاً:

إنّ خطاب أمير المؤمنين (ع) لمالك (رض) جاء تجلية صريحة لدعوة الإصلاح المجتمعي في أبهى صورها؛ إذ بدأ ذلك الخطاب بتهديب سلوكيات الحاكم بالمرتبة الأولى، واهتم (ع) في خطابه بضرورة أن يصلح الحاكم نفسه ويخشى الله في قوله وفعله قبل غيره: " أمره بتقوى الله، وإيتار طاعته، وإتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلا بإتباعها، ولا يشقى إلا مع جُودها وإصاعتها، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلمه ولسانه؛ فإنه، جلّ اسمه، قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزّه " (vi). وهو خطاب غاية في العظمة، ومنتهى الرقي في قصديته؛ فكون الإنسان يبدأ بإصلاح نفسه دون الالتفات إلى عيوب غيره، فإن ذلك دليل على نقاء السريرة، وصدق النوايا، وهي بداية صحيحة في خطوات إصلاح المجتمع.

- احترام الرعية وأبداء المحبة لهم والعفو عنهم:

قال (عليه السلام): " وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبباً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل، يؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطيهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك! وقد استكفأك أمرهم، وأبتلاك بهم " (vii). فصفات الرحمة، والمحبة، واللطف، والعفو، من أسمى الصفات التي يمكن أن يتحلّى بها الإنسان وهي من علامات القوة، والتمكّن من الذات والانتصار على النفس، كما أنها انتصار لقوى الخير والفلاح على قوى الشرّ والضلال؛ إذ الغضب والكره والفظاظة وعدم العفو عن الآخر دلائل على الضعف والهزيمة أمام الذات قبل الآخر، لأن العمل بها مخالف لما جبلت عليه فطرة الإنسان التي تتمتع أساساً بكل ما هو موجب ومنفتح تجاه الآخر، بعيداً عن الانغلاق والانكفاء على ما يخالف اتصاف الإنسان بالإنسانية (viii).

- إنصاف الرعية وتحقيق العدالة:

قال (عليه السلام): " أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصّة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيّتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عبادِهِ " (ix). فالإنصاف في أبسط معانيه " أن تعطي غيرك من الحق من نفسك مثل الذي تحب أن تأخذه منه لو كنت مكانه، ويكون ذلك بالأفعال والأقوال، في الرضا والغضب، مع من تحب ومع من تكره " (x). وقد قرن أمير المؤمنين (ع) رضا الله تعالى بإنصاف الناس؛ إذ الاجحاف ظلم، ومن ظلم كان الله له خصيماً. ولا يتوقف الانصاف على الانصاف من النفس فحسب، بل يشمل انصاف الناس ممن هم يحسبون على الحاكم ويتقربون منه أو إليه ممن لهم الحظوة لديه، أو

القرابة منه " وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُظْلَمِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمُرْصَادِ " (xi) ، فقصدية كلامه (ع) تتصرف إلى تحذير من عاقبة بخس الناس حقوقهم ودعوة المظلوم على ظالمه، وأنها مدعاة لتغيير النعمة واستبدالها بالنقمة ولو بعد حين (xii) .

- الحظوة برضا العامة:

ثم يعطف (ع) على كلامه بقوله: " وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعْمَهَا فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ " (xiii) مشيراً بذلك إلى الی وجوب تحقيق العدالة الاجتماعية واعطاء الحقوق إلى أهلها وجعل ذلك من محبوبات الأفعال لدى الولي وأقربها إلى نفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بتحقق الإنصاف؛ إذ الإنصاف يعني الاعتدال والدقة في إصدار الأحكام بعيداً عن العواطف والأحكام الشخصية (xiv) .

ومن ثمة، فإن الإمام (ع) أوصى بالتعامل بالوسطية، والاعتدال، وعطف عليهما رضا الرعية؛ معللاً ذلك بقول (ع): " فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْجِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ وَإِنْ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ " (xv) . فكلام الإمام (ع) يستجلي قصدية العلاقة الإدارية بين الحاكم وشعبه؛ وهي علاقة لا يجب أن تقتصر على المقربين منه وأصحاب المناصب الإدارية والساسة وكل من يحسبون على الطبقة الارستقراطية في المجتمع ؛ ذلك لأن الخاصة يتقبلون بمواقفهم بما يتناسب مع مصالحهم التي تضمن لهم الحفاظ على الجاه والشرف والرفعة، أما العامة فلا؛ لأن بهم تقوم الدولة، وبغزيمتهم تنتصر على الأعداء؛ ذلك أنهم ينطلقون من منطلق الانتماء للوطن لا الانتماء لأشخاص أو مصالح ضيقة.. قال (عليه السلام) : " وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِيِّ مَثْوَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقْلَ مَثْوَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهُ لِلْإِنصَافِ، وَأَسْأَلُ بِالْإِنْصَافِ، وَأَقْلَ شُكْرًا عِنْدَ الْإِغْطَاءِ. وَأَبْطَأُ عُذْرًا عِنْدَ الْمُنْعِ، وَأَضْعَفُ صَبْرًا عِنْدَ مِلْمَاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ . وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ ، الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ . فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ ، وَمِثْلَكَ مَعَهُمْ " (xvi) . وهنا نستحضر مع حدث مع الخليفة الثالث الذي كانت سوء سياسته وتقريبه الخاصة كمروان بن الحكم وغيره من بني أمية، واقصاؤه العامة من الناس سبباً في مقتله عندما نغم عليه الجيش الاسلامي وحاصروه في المدينة وقتلوه دون أن يحول الخاصة دون ذلك أو يدافعوا عنه، أو ينفعوه في أمره شيئاً (xvii) .

- اختيار الشخص المناسب:

ثم يتحدث (ع) عن المعايير التي يجب أن يؤخذ بها للاستشارة في أمور الدولة. يقول (ع) : " وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَغْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُّكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُرْتِنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحَرِيصَ عَرَائِزُ شَيْءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ " (xviii) . فالاستشارة تعني أن يراجع البعض البعض الآخر لاستخراج الرأي (xix) ؛ فالبخيل والجبان والحريص شخصيات يجب إبعادها عن المنظومة الإدارية؛ لأنها شخصيات مضروبة في صميم اعتقادها وفي مبدئها خلل وعدم اكتمال، فكيف - وذلك- يمكن الاعتماد عليها واستشارتها في إدارة شؤون البلاد وهي عاجزة عن إدارة نفسها!.

ويعقب (ع) كلامه في اختيار المستشارين، بخطاب آخر لمالك الأشتر (رض) يتعلّق بألية اختيار وزرائه: " إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا وَمَنْ شَرِكُهُمْ فِي الْأَثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَغْوَاءُ الْأَثَمَةِ وَإِخْوَانُ الظَّلْمَةِ " (xx) . فهو يحذّر من اختيار من كان معاوناً للحاكم الظالم من قبل؛ لأنه مجبول على الظلم والأنانية والاستعلاء فلا يصدر منه إلا كل قبيح بما لا يتفق وإدارة الحكومة العادلة المرجوة.

- تجنب المساواة بين السلوكيات:

قال (عليه السلام) : " وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْهِيدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَنْدَرِبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ. وَالزَّمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلَزَمَ نَفْسَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالِ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِهِ الْمُؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قَبْلَهُمْ " (xxi) .

فالإمام (ع) يؤكد على عدم المساواة بين المحسن والمسيء، وعلى ضرورة التمييز بين هذه السلوكيات وعدم الخلط بينها بداعي العدالة؛ إذ إن العدالة لا تتضمن المساواة، كما أن المساواة بين سلوكي الإحسان والإساءة باعث لأهل الإحسان على ضياع أعمالهم وعدم جدوى هذا السلوك الحسن فيصبحوا فيه زاهدين، ويصبح المسؤولون إلى سلوك الإساءة مبادرين، وهذا بحد ذاته نهي عن المعروف وأمر بالمنكر (xxii). والإمام (ع) بكلامه هذا يربط العدالة في التعامل مع حسن الظن: " فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرِعَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنْ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ " (xxiii).

- إدارة طبقات المجتمع:

يقول (عليه السلام): " واعلم أن الرعيّة طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض. فمنها جنود الله. ومنها: كتّاب العامة والخاصة. ومنها: قضاة العدل، ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، وكل قد سمى الله له سهمه ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً " (xxiv). فالإمام (ع) يلفت النظر إلى أن المجتمع منقسم على طبقات، وكل طبقة تتصدى لشأن من شؤون الحياة، وهذا بحد ذاته تنظيم لشؤون الحياة، فلا غنى للدولة عن أي صنف منهم، لأن واحدكم مكمل للآخر، ومن الضرورة أن تعامل هذه الطبقات جميعها بأخلاقيات الإسلام، إذ إن الإسلام قد فرض لكل صنف منهم حقاً محفوظاً في كتابه وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) وآله الأطهار (عليهم السلام)، وهذه الأصناف هي (xxv):

1. جنود الله: وهم حصون الرعيّة، وحماة للدين، وسبب للأمن، وبهم تقوى الدولة ويسمو عزها وتعلو هيبتها.
2. أهل الخراج: إذ لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوهم، ويتعكزون عليه في مؤونتهم، ويسدون به حاجتهم.
3. القضاة والعمال والكتّاب: وهذه الأصناف هي عماد الصنفين السابقين وقوامهما، لما يحكمون من المعاهد، ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.
4. التجار وذوي الصناعات: وهو قوام الأصناف السابقة كلها؛ فيما يجتمعون عليه من مراقبهم، ويقومونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم.
5. الطبقة السفلى: من أهل الحاجة والمسكنة الذين يجب ردهم وإعانتهم؛ لأنهم الطبقة الدنيا اقتصادياً وإدارياً في المجتمع.

- المتابعة المباشرة للرعيّة:

ثم يتحدث (ع) عن أخلاقيات الحاكم مع رعيته، وتحديدًا للطبقة من ذوي الحاجة والمسكنة؛ لأن هذه الطبقة من المجتمع لا تملك من الأمر شيئاً إلا أن يعطف عليهم الحاكم ويجالسهم ويقضي حاجاتهم وإلا تعرضت هذه الطبقة للإهمال وتصدع جزء من جسد المجتمع: " واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك " (xxvi).

ثم يؤكد (ع) إلى توسيع دائرة اهتمام الحاكم برعيته فلا تقتصر على طبقة دون أخرى، بل يشمل اهتمامه جميع فئات المجتمع، وقليل ما يصنعه الحاكم من لطيف أو إحسان، كبير عند الرعيّة الذين ينظرون إلى الحاكم نظرة الابن لأبيه، ينتظرون منه عطفاً ولطفاً. ودعا (ع) مالك الأشر إلى عدم اقتصار عنايته بالرعيّة عند جسام الأمور وعظام المشكلات؛ لأنها من الواجب عليه - حينها - الصغو لهم وتقعد أمورهم، فهذا أمر مسلم به، وإنما دعا الإمام إلى ضرورة الاستماع إلى صغير أمورهم ويسيرها لأن ذلك يعود بالنفع عليهم (xxvii): " ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما، ولا يتفاهم في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقرن لطفاً تعاهدتهم به وإن قل، فإنه لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك. ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها، فإن ليسير من لطفك موضعاً ينفعون به، ولجسيم موضعاً لا يستغنون عنه " (xxviii).

- مراعاة الجانب النفسي للرعيّة:

كيما يحظى الوالي بمودة الرعية لا بد أن تصح صدورهم تجاهه، ويحرصون عليه حرصهم على أنفسهم، ولا يحصل ذلك إلا بمرعاتهم نفسياً والحرص على فعل ما يستجلب سرورهم وثقتهم بأنفسهم ومن تلك الأمور المعززة لنفسيتهم الشاء عليهم ومدحهم وذكر محاسن أفعالهم؛ فإن في ذلك شراءً لمحبتهم وضماناً لمودتهم: " وَإِنْ أَفْضَلَ قَرَّةَ عَيْنِ الْوَلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ، وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ ضُدُورِهِمْ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطُنِهِمْ عَلَى وِلَاةِ أُمُورِهِمْ، وَقَلَّةِ اسْتِثْقَالِ دَوْلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِغْبَاءِ انْقِطَاعِ مَدَّتِهِمْ. فَأَفْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَأَصِلْ فِي حُسْنِ الشَّاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعَدِيدِ مَا أَبْلَى دَوُو الْبِلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهْزُ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ " (xxix) .

وكأن الإمام (ع) في قلب النظريات النفسية الحديثة التي تقول بالأثر الإعجازي للجانب النفسي في حياة الإنسان كالمديح والثناء وتعداد المحاسن وكل ما من شأنه استحضار المحفز لتلك الأفعال وتفعيلها، والتحفيز عملية من شأنها دفع الأفراد نحو سلوك معين عن طريق دوافع معينة تستهدف ذلك السلوك (xxx) . وسلوك التحفيز هذا سلوك قرآني ورد قصده في آيات منها: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنَبِّئُ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) ﴾ [نوح] .

- تفعيل الجزاء للرعية:

ويعطف (ع) بإعطاء كل ذي حق حقه، وعدم بخرس الرعية حقهم وضمه إلى غيرهم ممن تمكنوا في الدولة ونالوا في حظوظاً ومكانه في الإدارة أو الاقتصاد مما يمكن تسميتهم بالطبقة الارستقراطية التي تتباهى بالجاه والشرف على غيرها. وفي مقابل ذلك ذكر الإمام (ع) معادلتين: تتضمن الأولى أن جزاء العمل الصغير جزاء يناسب وزنه (لكل فرد في المجتمع على حدٍ سواء)، وتتضمن الثانية أن جزاء العمل الكبير جزاء يوافق وزنه وثقله (لكل فرد في المجتمع على حدٍ سواء)، فلا مكان في دولة الاسلام للتمييز أو التحيز فلكل نفس ما أبلت وعليها ما اقترفت، بصرف النظر عن طبقتها أو لونها أو مكانتها الاجتماعية أو غيرها من المقاييس التي افتعلتها البشرية بفعل الأنانية بما يخالف أخلاقيات الأديان عامة والاسلام خاصة: " ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أْبْلَى، وَلَا تُضْمَنَّ بِلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بِلَائِهِ، وَلَا يُدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بِلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا، وَلَا ضَعْفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُسْتَضْعِفَ مِنْ بِلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا " (xxxii) .

ختام العهد

لا ينكر منصف أن (نهج البلاغة) مصدر من مصادر التشريع الإسلامي ونبع معرفي عميق وردت فيه الأحكام والقواعد التشريعية والسنن الأخلاقية والمراجع الإنسانية بأبهى صورها في قالب من البلاغة والفصاحة التي انقطع نظيرها وعقرت الألسن عن الإتيان ببعضها. ورسالة الإمام علي (ع) لمالك بن الأشتر التَّحْيِي (رض) هي غيض من فيض، فجاء هذا العهد المقدس بمنزلة الدستور القانوني والإنساني للدولة النموذجية الذي يصلح تطبيقه على أي دولة في العالم في كل مكان وزمان؛ لأنه ببساطة يطبق كل ما دعا إليه الإسلام الحنيف من المبادئ الحقّة التي تساهم في تنظيم علاقات الأفراد مع بعضهم في غلاف من الإنسانية والرحمة والعتاء، ناهيك عن الأديان السماوية الأخرى التي استهدفت الإنسان بالمرتبة الأولى (xxxii) .

إنّ هذا العهد الشريف قصد الفرد في ألفاظه ومعانيه، فرسم مخططاً لآلية التعامل مع كل فرد من أفراد المجتمع، ووضع لذلك حدوداً وقواعد. بوصف الفرد اللبنة الأساس في بناء الدولة وعلى طريقة بناء الفرد يبني المجتمع ويتكون مظهر الدولة. وقيل أن يبدأ بالفرد كان لا بد من أن يبدأ الإمام (ع) بالحاكم الذي يجب أن يكون مؤهلاً لإدارة تلك الدولة والتصدي لقيادتها.

لقد شكّل عهد الإمام علي (ع) نسقاً قسدياً تقبع وراءه غاية تمثّلت بالنهضة بالمجتمع الإسلامي والإنساني عامة، إذ تجلّت التواصلية بينه وبين المخاطب من الجملة الأولى من العهد المقدس انتهاء بالأخيرة منه . فضلاً عن تجلي التواصل من خلال المحاور التي توقّف لديها الإمام (ع). وهذه الخطابات التواصلية كانت بمجملها عاكساً لقصدية الحوار من أجل بناء الدولة الحقّة من خلال النهوض بمجتمع واع

- i - ينظر: عهد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمالك الأشتر / 3.
- ii - م. ن. / 4.
- iii - نهج البلاغة: 63-64، وينظر: مالك الأشتر حياته وجهاده/ 97.
- iv - م. ن. / 3: 82-83.
- v - ينظر: أصول الإدارة في عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) لمالك الأشتر (رض)/ 146-147.
- vi - نهج البلاغة: 3/ 83.
- vii - م. ن. / 3: 84.
- viii - ينظر: التربية السياسية عند الإمام علي (ع) / 35.
- ix - نهج البلاغة: 3/ 85.
- x - أصول الإدارة في عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) لمالك الأشتر (رض)/ 158، وينظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: 9/ 335.
- xi - نهج البلاغة: 3/ 85.
- xii - ينظر: التربية السياسية عند الإمام علي (ع) / 38.
- xiii - نهج البلاغة: 3/ 86.
- xiv - ينظر: الكافي في الفقه / 59، وينظر: أصول الإدارة في عهد الإمام علي أمير المؤمنين (ع) لمالك الأشتر (رض)/ 158.
- xv - نهج البلاغة: 3/ 86.
- xvi - م. ن. / 3: 86.
- xvii - ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: 20/ 164.
- xviii - نهج البلاغة: 3/ 87.
- xix - ينظر: مفردات ألفاظ القرآن / 470.
- xx - نهج البلاغة: 3/ 87.
- xxi - م. ن. / 3: 88-89.
- xxii - ينظر: عهد الإمام علي (ع) إلى مالك الأشتر قراءة في الأفكار والسياسة/ 11.
- xxiii - م. ن. / 3: 89.
- xxiv - م. ن. / 3: 89-90.
- xxv - ينظر: التربية السياسية عند الإمام علي (ع) / 41.
- xxvi - نهج البلاغة: 3/ 102.
- xxvii - ينظر: التربية السياسية عند الإمام علي (ع) / 42.
- xxviii - نهج البلاغة: 3/ 91-92.
- xxix - م. ن. / 3: 92-93.
- xxx - ينظر: أسرار القيادة عند أمير المؤمنين علي (ع) / 69.
- xxxi - نهج البلاغة: 3/ 93.
- xxxii - ينظر: أثر نهج البلاغة في مصادر الفكر السياسي الإسلامي/ 82، بلاغة الخطاب التداولي في عهد الإمام علي (عليه السلام) لمالك الأشتر (رحمه الله) / 81-82.

المصادر والمراجع

1. أثر نهج البلاغة في مصادر الفكر السياسي الإسلامي: د. محسن باقر القزويني، مجلة أهل البيت (ع)، جامعة أهل البيت (ع) - كربلاء المقدسة - العراق، ع1/ 2005.
2. أسرار القيادة عند أمير المؤمنين علي (ع): كمال جميل، إصدارات مبرة سيد الشهداء (ع)، الكويت - ط1/ 2016.
3. أصول الإدارة في عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) لمالك الأشتر (رض): م. م. ياسمين حاتم بديد الابراهيم، م. م. سجاد عبد الحليم الربيعي، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية، ج2، ع 32، 1-1/ 2019.
4. بلاغة الخطاب التداولي في عهد الإمام علي (عليه السلام) لمالك الأشتر (رحمه الله) دراسة تداولية: عبد الهادي كاظم كريم، مؤسسة علوم نهج البلاغة، كربلاء - العراق، ط1/ 2017.
5. التربية السياسية عند الإمام علي (ع): أ. د. عامر عبد زيد الوائلي، مجلة العقيدة، ع 18، شوال/ 1440 هـ.
6. عهد الإمام علي (ع) إلى مالك الأشتر قراءة في الأفكار والسياسة: د. جاسم عبد الواحد راهي، كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء (بحث مخطوطة).
7. عهد الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمالك الأشتر وثيقة إسلامية ذات أبعاد قانونية - سياسية - اجتماعية - إدارية: مؤسسة الرياضي للطباعة العلمية .
8. الكافي في الفقه: أبو صلاح الحلبي، تحقيق: رضا استادي، مكتبة الإمام أمير المؤمنين (ع) العامة - أصفهان.
9. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علاء الدين علي الهندي (ت 1313هـ)، مؤسسة الرسالة، حيدر اباد.
10. مالك الأشتر حياته وجهاده: السيد محمد تقي الحكيم، المؤسسة الدولية للنشر والدراسات - بيروت، ط1/ 2001.

-
11. مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (ت 1108هـ)، تحقيق/ صفوان عدنان داوودي، طليعة النور، ط2/ 1427.
12. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ميرزا حبيب الخوئي، دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر - بيروت، ط1/ 1422.
13. نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبده، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.